

فالامام الشافعي قال بالفدية تباسا على الشيخ الهرم
وأوجب عليهما القضاء مع الفدية .

أما الامام أبو حنيفة فأوجب على الحامل والمرضع
إذا خافتا على الولد القضاء لا الفدية . وأبطل القياس
على الشيخ الهرم لأنه لا يجب عليه القضاء ويجب
عليهما . قال : فلو أوجبنا الفدية مع القضاء ، كان
جمعا بين البدلين وهذا غير جائز .

وأن لنا بعد هذا كله ان نقدر الآية ونرد الى
القرآن ما تنازعوا فيه . القول بنسخ الحكم فيها
بالآية بعدها ، ان لم يوهنه قول من قرروا أنه حكم
مبني من لدن نزلت الآية الى تيام الساعة .

نقد بقي ان الآيتين تشرعان لحالتين مختلفتين .
الفدية على من يطيقونه .

والقضاء على من كان مريضا أو على سفر . ولا
يكلف بالقضاء الا من أنظر لعذر عارض لميصوم بعد
زوال العذر ، عدة من أيام أخر . وفي مثل هذا لا تقبل
الفدية بديلا من القضاء .

وانما الفدية بنص الآية « على الذين يطيقونه » .
فهل هم الذين لا يطيقونه .

نستبعد ان تكون « لا » محذوفة هنا وهي
مرادة ، فالآية من آيات التشريع والاحكام ، والفعل
فيها مثبت ، وتأويلها على تقدير « لا » محذوفة ينقض
الاثبات بالنفي .

ولو كانت الفدية على من لا يطيقونه ، لأخذ حرف
النفي مكانه في نص الحكم الشرعي ولم يدع لنا مجالا
لان نختلف على تأويله بين التقيضين من اثبات ونفي .

واذ قال تعالى : « وعلى الذين يطيقونه » لما
ينبغي أن نتاويلها بالنفي فنخرجها الى تقيض حكمها
الصريح المثبت نصا .

واحسب ان الذين تناولوا الآية على تقدير حذف
« لا » صراحة أو مالا ، فهموا « يطيقونه » بمعنى
يستطيعونه . وليست الكلمتان سواء .

في لفظ الاستطاعة حس الطوامية والمواتسة
والقدرة .

أما الطاقة فهي في العربية لغة القرآن ، أقصى
الجهد ونهاية الاحتمال .

وحين يقول العربي لصاحبه :

« هل تطيق هذا »

لا يقولها الا وهو يقدر ان هذا مما لا يحتمل ولا
يطاق .

واستعمال القرآن للطاقة اسما ومعلا ، يؤذن
بانها مما يستند الجهد وطاقة الاحتمال ، كما تشهد
بذلك آياتها الثلاث وكلها من سورة البقرة .

« تناولوا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » 149

« ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » 286 وبها
نستأنس في فهم الآية الثالثة :

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين »
فندرك أن الأمر في احتمال الصوم اذا جاوز الطاقة
وخرج الى ما لا يطاق ، سقط التكليف ، لانه لا تكليف
شرعا بما لا يطاق ، والله سبحانه لا يكلف نفسا الا
وسمها .

فالفدية تيسير على الذين يطيقونه ، بمعنى
يستغذ الصوم طاعتهم وانص احتمالهم فليسوا بحيث
يستطيعون القضاء عدة من أيام أخر .

ويصدق الحكم على المريض لا يرجى شفاؤه ،
وعلى من يتكلفونه على جهد منهم ومسر وهم الشيوخ
والمجانز ، وحكم هؤلاء الاطوار الفدية . وهو على
هذا الوجه غير منسوخ .

تيسيرا على من لا يستطيعون القضاء عدة من
أيام أخر .

وتبقى الآية على صريح نصها .

« وما الذين يطيقونه فدية طعام مسكين »

من لا يستطيعون القضاء .

دون تأويلها على حذف « لا » الزائدة وهي
مرادة .

وهذا مثل مما قالوا فيه بحذف الحرف . يمكن
ان يصدق على حروف أخر تناولوها على الصلح .
ويقوم النص في البيان القرآني مستغنيا عن تقدير
حرف محذوف ، ولاننا الى سر البيان في الاستغناء عن
كل حرف قدره محذوف .

*

وننظر في حروف أخرى لم يقولوا فيها بتأويل
على تقدير زيادة أو حذف ، وانما أخذوا فيها بمذهب

القرآني ، ومناط التعبير فيه ، هذا الانغماس والملابسة
الملاحظة في ظرفية « في » .

وحرف « عن » في آية الماعون :

« نويل للمصلين . الذين هم من صلاتهم
ساهون » .

نستبعد قول من تأولوا السهو عن الصلاة في
الآية ، بأنه سهو في الصلاة ، فليس السهو فيها
بخطيئة ولا منكر ينذر معه الساهي بويل . وكل مؤمن
عرضة لأن يسهو في صلاته ، فينجبر هذا السهو فيها
بوجود السهو أو بالسنة والنوافل على ما هو مقرر
في باب الصلاة من أحكام الفقه .

وانما الويل للساهين عن صلاتهم الغافلين عن
كونها تليما بين يدي الخالق ، يكبح غرور الإنسان
وينهاه عن الفحشاء والمنكر ، ويرهب ضميره فيقتي الله
في اليتيم وفي المسكين مؤديا حقهما في التواصل
بالمرحمة .

وصلاة الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام
المسكين ، لا يمكن أن تصدر عن قلب خاشع وضمير
مؤمن . ونحن لا تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ،
فذلك هو السهو عنها ، تعود به طقوسا شكلية
ونفاقا يرائي به الناس .

*

ومن الحروف التي تأولوها في القرآن الكريم
حرف الواو في آية النساء :

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث
ورباع » قالوا ان الواو فيها نائبة عن « أو » وقد يكنى
ان أنقل هنا رد « ابن هشام » :

« ولا يعرف ذلك في اللغة وانما يقوله بعض
ضعفاء اللغويين والمفسرين » .

ثم نقل من كلام : أبي طاهر حمزة بن الحسين
الإصهاني ، في كتابه المسمى « بالرسالة العربية عن
شرف الأهراب » :

« القول فيها — أي آية النساء — بأن الواو
بمعنى (أو) ، عجز عن درك الحق . فاعلموا أن

للنحاة يقول ان حروف الجر يمكن ان تتعاقب فيأخذ
احدها مكان الآخر وينوب بعضها عن بعض . وهذا
ما يتداولونه ويستدلون به كما اشار الى ذلك « ابن
هشام » في (المغنى) (1) .

وهو مذهب رفضه من وصفهم « أبو هلال
المسكري » بالحقين من أهل اللغة ، ونقل عن « ابن
درستويه » قوله :

« في جواز تعاقبها — أي الحرفين — ابطال
حقيقة اللغة ، وامسأد الحكمة فيها ، والقول بخلاف
ما يوجب العقل والقياس .

« قال أبو هلال : وذلك ان الحروف اذا تعاقبت
خرجت عن حقائقها ووقع كل واحد منها بمعنى الآخر
فاوجب ذلك ان يكون لفظان مختلفان لهما معنى واحد.
فأبى المحققون ان يقولوا بذلك وقال به من لا يتحقق
المعاني » (2) .

وقال « ابن هشام » تمقيا على تولهم ان بعض
حروف الجر ينوب عن بعض :

« وتصحيحه بادخال (قد) على تولهم : ينوب
عن بعض ، والا تعذر استدلالهم به ، اذ كل موضع
ادموا فيه ذلك ، لا نسلم ان هذا مما وقعت فيه
النيابة ، ولو صح تولهم لجاز ان يقال : مررت في زيد
ودخلت من عمر وكتبت الى القلم . على ان البصريين
ومن تبعهم يرون في الأماكن التي ادميت فيها النيابة ،
ان الحرف باق على معناه » فان كان تجوز فهو في
الفعل ، لان التجوز في الفعل اسهل منه في الحرف (3)

ونعرض هذا الخلاف على البيان الاعلى فيأبى
ان نتاول حرما فيه بحرف آخر .

من ذلك مثلا :

قوله تعالى : « فهم في ريبهم يترددون » التوبة .
قيل ان حرف « في » يمكن ان يتأول بحرف « من »
أو « اللام » على تقدير :

« فهم من ريبهم » ، أو ، لريبهم ، يترددون »
ولا يمكن ان يقوم أحد الحرفين مقام الحرف في النص

(1) مغنى اللبيب 163/2 مصر .

(2) أبو هلال المسكري : الفروق اللغوية ، 13 ط الحلبي

(3) ابن هشام : مغنى اللبيب 163/2 .

اتشابهت جميعا على ان ينكحوا اما مثنى واما ثلاث واما رباع .

واظن ان هذه المثل التي تقدمتها تكفي لاجتلاء سر الحرف لا يقوم مقامه غيره . ويغنى عن مزيد تتبع هنا ، ما قد يتاح لنا من تدبر الحرف في سياقه القرآني عند الحديث عن (الظواهر الاسلوبية وسر التعبير) .

« دلالات الالفاظ وسر الكلمة »

من قديم شغلت قضية الترادف علماء العربية واختلقت مذاهبهم فيها . والبيان القرآني يجب ان يكون له القول الفصل فيما اختلفوا فيه ، حين يهدي الى سر الكلمة لا تقسوم مقامها كلمة سواها من الالفاظ المقبول بترادفها .

والامر كذلك في الفاظ القرآن ، ما من لفظ منها يمكن ان يقوم غيره مقامه ، وذلك ما ادرکه العرب النصحاء الذين نزل عليهم القرآن مصر البعث وامياهم ان ياتوا بسورة من مثله .

واحتاج هنا الى وثقة قد تطول عند مشكلة الترادف التي طال الجدل فيها والخلاف عليها .

ولا يشغلنا تعدد الالفاظ للمعنى الواحد ، اذا كان عن اختلاف لغات القبائل ، وذلك ما لا خلاف فيه فيما علم (2) .

وانما يشغلنا الترادف حين يقال فيه بتصدد الالفاظ للمعنى الواحد دون ان يرجع الى تصدد اللغات :

منا من يعد هذا الترادف ظاهرة فقدان الحس اللغوي وعدم قدرته على ضبط الدلالات وتحديد معاني الالفاظ ، او يراه من الفضول والتزيد الذي لا فائدة فيه (3) .

ومنا من يرى هذا الترادف ظاهرة فنى وسمة وقدرة على التصرف . وما اكثر من يباهون بهذا الثراء اللغوي ويمدونه ميزة من مزايا العربية الشريفة . وان يكن تقدم الدراسات اللغوية قد جاوز بنا مرحلة

الاعداد التي تجمع تسمان : قسم يؤتى به ليضم بعضه الى بعض وهو الاعداد الاصول نحو « ثلاثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعتن ، تلك عشرة كاملة » ، « ثلاثين ليلة واتبعناها بعشر ممت ميعات ربه اربعين ليلة » .

« ولم يقولوا ثلاث وخماس ، ويريدون ثمانية ، كما قال تعالى : « ثلاثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعتن » وللجهل بموقع هذه الالفاظ استعمالها « المتنبى » في غير موضع التقسيم يقال :

« احاد ام سداس في احاد ليلتنا المنوطة بالنادي »

ونستانس في مهم مثنى وثلاث ورباع باية ناطر:

« الحمد لله ناطر السموات والارض جامل الملائكة رسلا اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع » 34 وآية سبا : « قل انما اعظمكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى » 46 .

فتدرك الملحظ البياني للواو في مثل هذا السياق ،

بما تفيد من كون الملائكة ليسوا جميعا سواء ، بل منهم اولو جناحين ومنهم اولو ثلاثة واولو اربعة . وفي آية سبا ، تضيير يكون لهم فيه ان يقوموا فرادى وان يقوموا مثنى . ولو قيل « مثنى او فرادى » للزم ان يقوموا جميعا اما مثنى واما فرادى ، ولم يكن لهم ان يقوموا في بعض الحالات مثنى ، وفي بعض الحالات فرادى .

وبهذا الاستئناس لا نرى السياق يستقيم ، بل لا نراه يصح اطلاقا ، اذا ما وضعت (او) مكان (الواو) في آية النساء . لان مقتضى التعبير بحرف (او) انه لا يسوغ لهم الا ان ينكحوا جميعا مثنى او ثلاث او رباع ، بحيث لا يختلف رجل من رجل ، وليس هذا هو الحكم المستناد من الآية في اباحة تعدد الأزواج ما بين مثنى وثلاث ورباع ثم لا يتجاوز وزنها السى المحظور وراء رباع (1) ويخطئ سر العربية من يفرق بين مثنى وثلاث ورباع ، وبين اثنتين وثلاث وأربع المعادلة لسبع !

كما يخطئه من لا يميز بين « مثنى وثلاث ورباع » وبين : مثنى او ثلاث او رباع ، بما تفيد « او » من

(1) انظر تفسير الطبري والزمخشري : سورة النساء .

(2) السيوطي : المزهري من 405 ط الحلبي

(3) ابن فارس : الصحابي في لغة 11 .

ولما سأل ابن خالويه : فأين الهند ، والصارم ،
والغضيب ، والحمام ، و .. و .. ؟

اجاب : هذه صفات ، وكان الشيخ لا يفرق بين
الاسماء والصفات (2) .

ومنف أبو هلال العسكري « كتابه (الفروق
اللغوية) لبيان أن اختلاف الألفاظ في لغة واحدة ،
يوجب اختلاف المعاني . فإذا جرى اسمان على معنى
من المعاني أو عين من الأعيان في لغة واحدة « فإن
كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر ، والا
لكان الثاني فضلا لا يحتاج إليه » .

قال : « وإلى هذا ذهب المحققون من العلماء ،
واليه أشار « البرد » في تفسير قوله تعالى من آية 48 ،
سورة المائدة :

« لكل جعلنا منكم شرمة ومنهاجا » فمطف
شرمة على منهاج ، لأن الشرمة لأول الشيء
والمنهاج لمعظمه ومتسعه ... ويمطف الشيء على
الشيء وأن كانا يرجعان إلى شيء واحد ، إذا كان
في أحدهما خلاف للآخر ، فأما إذا أريد بالثاني ما
أريد بالأول فهو خطأ .

قال أبو هلال : « والذي تاله « البرد » هاهنا
في المطف ، يدل على أن جميع ما جاء في القرآن ومن
العرب من لفظين جاريتين مجرى ما ذكرنا ... معطوف
أحدهما على الآخر ، فأنما جاز هذا ليهما لما بينهما من
الفرق في المعنى . ولولا ذلك لم يجز مطف زيد على أبي
عبد الله ، إذا كان هو هو (3) .

وإلى هذا ذهب « ثعلب » ونقل قول « ابن
الامرأبي » : « وكل حرمين أوتمتهما العرب على معنى
واحد ، في كل منهما معنى ليس في صاحبه ، وربما
عرفناه فأخبرنا به ، وربما فمض علينا فلم نلزم العرب
جهله .

ومصرح « ابن فارس » في كتابه الصحاحي :
« ومذهبنا أن كل صفة منها - أي الصفات الواقعة
على الشيء الواحد - معناها غير معنى الأخرى .
وقد خالف قوم في ذلك فزعموا أنها وإن اختلفت الفاظها
فإنها ترجع إلى معنى واحد »

المفاضلة الساخجة بين اللغة العربية وغيرها من
اللغات ، ووجهنا إلى البحث في خصائص العربية
منتمين بما قدمت البحوث العلمية الحديثة في اللغويات
والمصوتيات ، فلم تعد كثرة الألفاظ الدالة على المعنى
الواحد مدعاة فخر ومباهاة ، وإنما أصبحت قضية
تلتهمس حلا .

وحين ننظر فيما وصل إلينا من كتب اللغة
ومعاجمها ، نراها تسلك مسلكين مختلفين متبايعين:

منها ما يترر وجود الترادف فيحشد للمعنى
أبواب الفاعل ذات عدد ، وهذا هو مسلك « أبي
سحل الأمراي » (في القرن الثاني هـ) في كتابه (النوادر)
« وابن السكيت » (ق 3 هـ) في (الألفاظ) .
وللفيروزآبادي صاحب (التاموس) كتاب في
الترادفات أسماه (الروض المسلول فيما له اسمان
إلى الوف) .

وكتاب آخر في أسماء العسل جمع فيها ثمانين
اسما .

ونقل « ابن فارس » قول من سمع « ابن
خالويه » يقول :

« جمعت للأسد خمسمائة اسم ، وللحبة مائتين »

كما نقل خبر « الأصمعي » حين سأل « الرشيد »
في شعر غريب ففسره ، فقال الرشيد : يا أصمعي ،
إن الغريب عندك لغبر غريب .

مقال : يا أمير المؤمنين : إلا أكون كذلك وقد
حفظت للحجر سبعين اسما ؟ (1) .

ومن قالوا بالترادف : الفراء ، وتطرب ،
والفخر الرازي ، والتاج السبكي . ويوشك أن يكون
هذا هو مذهب « جلال الدين السيوطي » .

وانكره علماء آخرون انكارا باتا ، إلا ما كان منه
في لغات عدة . منهم « أبو علي الفارسي » الذي سمع
« ابن خالويه » يقول في مجلس سيف الدولة بطلب :
أحفظ للسيف خمسين اسما .

فتبسّم أبو علي وقال : ما أحفظ له إلا اسما
واحدا هو السيف .

(1) السيوطي : المزهري في علوم اللغة 405 حلي بالقاهرة

(2) ابن فارس : الصحاحي في لغة 15 السلفية بالقاهرة

(3) أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية ، ص 12

ونبه « الجاحظ » في أكثر من موضع في كتبه ورسائله إلى بطلان الترادف ، إلا أن يكون اختلاف لغات (1) .

*

وظلت القضية فيما أهدم معلقة لم يستقر فيها أصحاب العربية على رأي حاسم ، وإن كان مذهب القول بالترادف هو الذي غلب وراج في العصور المتأخرة . ويقول به اليوم عدد من أصحاب التخصص في لغة اللغة وعلم الاجتماع (2) .

والى ماض قريب ، كانت قضية الترادف من بين ما شغل به المجمع اللغوي في القاهرة . وقد اقترح أحد السادة المجمعين أن نخفف من عبء المترادفات فنصنف بعضها للألفاظ العربية يستبعد ما زاد في المعنى الواحد من لفظ واحد يختاره المجمعيون من معاجم العربية (3)

*

والقرآن الكريم كتاب العربية الأكبر ، ومن الحق ألا نأخذ في هذه القضية برأي دون عرضها على الكتاب العربي المبين « .

ولقد شهد التتبع الاستقرائي لما درست من ألفاظ القرآن الكريم ، أنه ينفي الترادف ، إذ يستعمل اللفظ بدلالة محددة لا يمكن أن يؤديها لفظ سواه ، في المعنى الذي تقدم له المعاجم وكتب التفسير عددا من الألفاظ قل أو أكثر .

وهذه بعض أمثلة تجلو موقف البيان الأعلى من قضية الترادف التي اختلفوا فيها :

الحلم والرؤيا :

تفسر المعاجم أحد اللغتين بالآخر .

ونستقرىء مواضع ورودهما في القرآن ، ونتدبر سياقاتها فلا يترادفان :

استعمل القرآن الأحلام ثلاث مرات : يعطى سياقاتها جميعا أنها الأضغاث المشوشة والهواجس المختلطة . وثاني في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع ، دلالة على الخلط والتشوش ، لا تمييز فيه .

يقول تعالى على لسان المشركين :

« بل قالوا أضغاث أحلام بل انتراء بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » الانبياء : 5 .

وعلى لسان الملا من قوم العزيز :

« قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » يوسف : 44 .

أما الرؤيا فجاءت في القرآن سبع مرات ، كلها في الرؤيا الصادقة . وهو لا يستعملها إلا بصيغة المفرد ، دلالة على التمييز والوضوح ، وجلاء المرئي وصفاء الرؤيا .

ومن بين المرات السبع ، جاءت الرؤيا خمس مرات للأنبياء ، فهي من الإلهام القريب من الوحي :

رؤيا إبراهيم عليه السلام في آية الصلوات :

« وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين » 109 .

ورؤيا يوسف إذ يقول له أبوه :

« يا بني لا تصمص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين » 50 .

وتابع سياقاتها في السورة فتراها قد صدقت وتحقتت :

« ورفع أبويه على المرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا » 60 .

ورؤيا المصطفى عليه الصلاة والسلام في الإسراء :

« وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا تمثية للناس » 60 . ورؤياه في الفتح :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام أن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم

(1) انظر مثلا : الحيوان : 56/4 ، 200/7 .

(2) منهم الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه (دلالات الألفاظ) والدكتور علي عبد الواحد في مقال نشره عن مزايا لغتنا العربية ومضائلها وشرمها ، سنة 1963 .

(3) المجلد الثامن ، من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

ومتصرين لا تخافون ، فاعلم ما لم تعلموا فجعل من
دون ذلك فتحا قريبا « 27 .

فهذه خمس مرات من استعمال القرآن للرؤيا
للأنبياء . والمرتان الأخيران في رؤيا العزيز ، وقصدت
صدقت . وفي آيتها عبر عنها القرآن على لسان الملك
بالرؤيا لوضوحها في منامه وجلالها وصدق الهامها ،
وان بدت للملأ من تومه هواجس أو هام واضغاث
أحلام .

« وقال الملك اني ارى سبع بقرات سمان يأكلهن
سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات
يا ايها الملا افئتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون.
قالوا اضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين»
سورة يوسف 43 — 44 .

وتمضي القصة في سياقتها القرآني ، فاذا هي
رؤيا صادقة وليست كما بدت للملأ من توم الملك
اضغاث أحلام .

✱

آنس وأبصر :

في المعاجم : آنس الشيء أبصره ، والصوت
سعه ، واستانس استاذن .

فهل نقول في « آنس نارا » أبصرها ، أو نظرها ،
أو اشبه ذلك من الالفاظ التي يحتمل ان تتعاقب على
هذا المعنى ؟

نستقرئ استعمال القرآني فيعطينا حس
العربية المرهف لا تقول : آنست في الشيء تبصره أو
تسمعه دون ان يؤنس .

فاذا قال العربي : آنست ، فقد رأى أو سمع
ما يؤنسه . والقرآن قد استعمل الفعل «آنس» خمس
مرات ، منها أربع في النار التي رآها موسى
عليه السلام حين سار بأهله في البرية فانس اليها .
وهذه آياتها :

طسه 10 :

« اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا اني آنست
نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار
هدى » .

النبل 7 :

« اذ قال موسى لأهله اني آنست نارا سأتيكم
منها بخبر أو آتيكم بشهاب تبس لعلكم
تصطلون » .

القصص 29 :

« فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس من
جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا اني آنست
نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جدوة من النار
لعلكم تصطلون » .

والمرة الخامسة في آية النساء :

« وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فآنس
آنستم منهم رشدا فادعوا اليهم أموالهم » .

ليس اليناس هنا مجرد ابصار لطواهر الرشد
المادية الحسية، ولكنه الطمأنينة المؤنسة ، بعد الإبتلاء
والامتحان ، الى أنهم قد رشدوا حقا .

وجاءت من المادة في القرآن صيغة الفعل المضارع
من الاستئناس في آية النور :

« يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم
حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » 27 .

والاستئناس فيها ليس مجرد استئذان ، وانما
هو حس اليناس لأهل البيت ممن يدخل عليهم . ولا
يسوغ في ذوق العربية أن يقال مثلا : استأنسس
الشرطي . أو جابي الضرائب أو الدائن ، وانما هو
الاستئذان ليس فيه حس ايناس .

كما لا يسوغ استعمال « آنس » في رؤية عدو ،
أو سماع هزيم رعد أو زئير وحش .

✱

الآنس والآنسان (1) :

وحس الآنس نقيض الوحشة ، هو الملحظ العام
المشترك في الدلالة لكل صيغ المادة .

ومنها الآنس والآنسان :

يلتقيان في الملحظ العام لدلالة مادتهما المشتركة
« ان س » على نقيض التوحش .

(1) تقدمت الاستقراء الكامل لاياتها في كتابي « مقال في الإنسان » « دراسة قرآنية » المعارف 1969 .

لكنهما لا يترادفان ، بل ينفرد لفظ الانسان بلحظ خاص من الدلالة يميزه عن الآخر .

لفظ الانس يأتي في القرآن دائما مع الجن على وجه التقابل يطرد ذلك في كل الآيات التي ورد فيها اللفظ تسيما للجن ، وعددها ثمانى عشرة آية .

ولحظ الانسية فيه ، بما تعنى من تقييد التوحش ، هو المفهوم صراحة من مقابلته بالجن في دلالتها أصلا على الخفاء الذي هو من ظواهر التوحش .

وبهذه الانسية يتميز جنسنا من اجناس اخرى خفية مجهولة غير مالوفة لنا ، ولا هي تخضع لنواميس حياتنا .

وأما الانسان فليس مناط انسانيته فيها نستقرىء من آيات البيان المعجز ، انه انس محسب ، وانما الانسانية فيه ارتقاء الى الدرجة التي تؤهله لاحتمال تبعات التكليف وامانة الانسان ، وما يلابس ذلك من تمرض للابتلاء بالخير والشر (1) .

وقد ورد لفظ « الانسان » في القرآن الكريم : في خمسة وستين موضعا نتدبر سياقاتها جريما لتهدينا الى الدلالة المميزة للانسانية .

هو في جنسه العام انس :

« خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجن من مارج من نار » آية 14 سورة الرحمن .

« ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم » .

آية 24 سورة الحجر .

لكنه مع انسيته يختص بالقراءة والعلم (الملق) والبيان (الرحمن) والكسب والتكليف (الانسان) ، النجم 39 ، القيامة 14 ، الاسراء 17 . والجندل (الكهف 54) .

ويحتل الوصية (لقمان 14 ، العنكبوت 8) .

وهيوم المكابدة وانتحام العقبة (البلد 4) .

ويحمل الامانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفتن منها (الاحزاب 72) .

وهو الذي يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنة الغواية الفرقان 29 ، ق 16 ، الحشر 16 ، الانسان 2 ، 4 ، العنكبوت 15) .

ويزدهيه الغرور فيطفي ويستكبر ، ويفضله وهم الاستغناء من خالقه (الملق 6) وما أكثر ما يذكر القرآن الانسان بضعفه وهو انه كبحا لجماح غروره تبيلا يتجاوز قدره فيطفي ! وهو مظنة أن يتمادى به الطفيلان والغرور الى حد الكفر بخالقه والوقوف منه سبحانه موقف خصيم مبین (النحل 4 ، مريم 67 : الانفطار 6 ، فصلت 49 ، الزخرف 15 ، عبس 17 ، العاديات 6) .

*

النعمة والنعيم :

وكذلك يلتقي لفظا « النعمة والنعيم » في الدلالة العامة لمادتهما الواحدة المشتركة ، ثم ينفرد كل منهما في البيان القرآني بلحظ خاص يميزه عن الآخر فلا يترادفان .

والمعاجم اللغوية لا تكاد تفرق بين الصيغتين ، والمسرون يؤولون النعيم بكل ما تحتله الدلالة المعجبية للمادة .

ونستقرىء الصيغتين في القرآن كله ، فنراه يفرق بينهما تفرقة واضحة :

كل نعمة في القرآن انما هي لنعم الدنيا على اختلاف انواعها . يطرد ذلك ولا يتخلف في مواضع استعمالها ، مفردا وجمعا ، في القرآن وعددها ثلاثة وخمسون موضعا .

أما صيغة النعيم فتختص بنعيم الآخرة . يطرد ذلك أيضا ولا يتخلف في مواضع استعمال القرآن لها وعددها ستة عشر موضعا .

منها خمسة عشر موضعا لا يحتل صريح سياقاتها أي تأويل :

التوبة 29 :

« وجنات لهم فيها نعيم مقيم » .

(1) انظر تفصيل ذلك الاستقراء في الجزء الثاني من كتابي (التفسير البياني) .

الطور 17 :

« ثم لتسالن يومئذ عن النعيم »

« ان المتقين في جنات ونعيم » .

ولا نستطيع امام اطراد تخصيص القرآن صيغة النعيم لنعيم الآخرة ، ان نفسرها بما حشدت كتب التفسير فيها من نعم الدنيا التي لا تأتي في القرآن الا بصيغة نعمة او نعماء .

الواقعة 89 :

« فأما ان كان من المقربين . فمروح وربحان وجنة نعيم »

وسر البيان فيها ان الذين الهام الكاثر في اعراض الدنيا عن التزود لآخراهم سيسألون يوم يرون الجحيم عين اليقين ، عن النعيم الحق ما هو . وعندئذ يعلمون علم اليقين حقيقة النعيم الذي اضاعوه والهام عنه التكاليف على نعم الدنيا الفانية وأعراضها الزائلة (1)

المعارج 38 :

« ايطمع كل امرئ منهم ان يدخل جنة نعيم »

المطففون 22 :

« ان الأبرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نظرة النعيم » .

النسأى والبعد :

يأتي بهما جمهرة اللغويين والمفسرين ، تأويلا لأحدهما بالآخر ، دون اشارة الى فرق بينهما .

الانسان 20 :

« وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا »

وفرق بينهما من انكروا الترادف . ونستقرىء مواضع الاستعمال القرآني للنسأى والبعد فلا يترادفان :

« واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا »

المائدة 65 :

« ولادخلناهم جنات النعيم »

فليس في القرآن نأى ، الا بمعنى الاغراض والصد والاشاحة ، بصريح النص والسياق في آيات .

يونس 9 :

« تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم » .

« واذا انعمنا على الانسان اعرض وقاى بجانبه »

الحجج 56 :

« الملك يومئذ لله ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم » معها آيتا : الصافات 43 ، الواقعة 12 .

الانعام 26 :

« حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الاولين ، وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهاكون الا انفسهم وما يشعرون »

لقمان 8 :

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم » .

اما « البعد » فيأتي في القرآن على الحقيقة او المجاز ، في البعد المكاني او الزماني . المادي منهما والمعنوي ، كما هو واضح في آيات :

القلم 34 :

« ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم »

« لو كان مرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعسوك ولكن بعدت عليهم الشقة »

الشمراء 85 :

« واجعلني من ورثة جنة النعيم » .

سبا 19 :

« فقالوا ربنا بعدد بين اسفارنا »

وتبقى آية التكاثر :

(1) اوضحت ذلك بمزيد تفصيل في تفسير سورة التكاثر بالجزء الاول من (التفسير البياني للقرآن الكريم) .

- الزخرف 28 :
« قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين »
- الانبياء 109 :
« وان ادري الاقرب ام بعيد ما توعدون »
- الفرقان 12 :
« ذا رانهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا »
- النمل 22 :
« فمكت غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ بنبا يقين »
- سبأ 52 ر 53 :
« واتى لهم التناوش من مكان بعيد ، وقد كفروا به من قبل ويقدفون بالغيب من مكان بعيد »
- فصلت 44 :
« اولئك ينادون من مكان بعيد »
- ق 32 :
« وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد »
- آل عمران 30 :
« تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا »
- المارج 6 :
« انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »
- الانبياء 101 :
« اولئك عنها مبعدون »
- هود 83 :
« وما هي من الظالمين ببعيد »
- هود 95 :
« الا ابدا لمدين كما بعدت لمد »
- هود 14 :
« وقيل بعدا للقوم الظالمين »
مما هود 60 ، 68 المؤمنون 41 ، 44 .
- « ويبعد في المعنويات مثل شقاق بعيد (البقرة 176) ، الحج 53 ، فصلت 52) وضلال بعيد (ابراهيم 3 ، 18 النساء 6 ، 126 ، 136 ، 167 ، الحج 12 ، الشورى 18 ، سبأ 8 ، ق 27 ، الشورى 18) .
- ياتي دائما في مقابل القرب .
- على حين يخلص الناي للمعنوي المحض ، في الصد والافراحي نقبض الاقبال .
- حلف ، والقسم :
- يقال بترادفهما كما نص على ذلك صاحب التاموس . وقد تاتي حلف في شواهد من الشعر الجاهلي بمعنى اقسام ، في مثل قول النابغة :
- « حلفت فام اترك لنفسك ربية »
- والاعشى :
- « حلفت له بالراقصات الى منى »
- وشاس بن عبده :
- « حلفت بما ضم الحجيج الى منى »
- لكن التتبع الاستقرائي للمادتين في القرآن الكريم يمنع ترادفهما :
- جاءت مادة « حلف » في ثلاثة عشر موضعا ، كلها بغير استثناء في الحث باليمين .
- والغالب ان ياتي بالفعل مستندا الى المنافقين كآيات التوبة :
- « وسيحلفون بالله لو استظمنا لخرجنا معكم ، يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون » (42)
- « ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم » (56)
- « يحلفون بالله ليرضوكم والله ورسوله احسق ان يرضوه ان كانوا مؤمنين » (62)
- « يحنقون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم » (74)
- « يحلفون لكم لترضوا فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (96)
- « وليحلفن ان اردنا الا الحسنى ، والله يشهد بانهم لكاذبون » (107)
- ومعها في المنافقين كذلك آيات :
- النساء 62 ، المجادلة 14 ، 18 .
- وآيسة القلم :

« ولنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » البقرة
35 والاعراف 19 .

« فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك »
طسه 117 .

على حين يستعمل « امرأة العزيز ، وامرأة نوح ،
وامرأة لوط ، وامرأة فرعون .

وقد يبدو من اليسير ان يقوم احد اللفظين مقام
الآخر ، فنفس زوج آدم بامرأة آدم ، وامرأة فرعون
بزوج فرعون .

وذلك ما يباهه البيان المعجز .

وهو الذي يعطينا سر الدلالة فى الزوجية مناط
العلاقة بين آدم وزوجه فى قصة اول زوجين من
البشر . ولم تكن زوج آدم نمطا من النساء او امرأة
من اخريات ، بل كانت وحدها الزوج ، وكانت الزوجة
ولا شىء غيرها ، مناط علاقتها بآدم وسر وجودها .

وليس الامر كذلك فى امرأة العزيز وامرأة نوح
وامرأة لوط وامرأة فرعون ، وسياق الحديث منهن من
حيث هن أفعال من النساء ، وليس عن العلاقة الزوجية
بينهن وبين أزواجهن . والعبرة فى قصصهن ان كل
واحدة منهن مضرب المثل :

امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ؟

امرأة نبي وتخونه !

امرأة طاغية متجبر كافر ، تؤمن بالله .

ونستقري استعمال القرآن للفظ زوج وأزواج
فنجد هذا الملحظ فى كون العلاقة الزوجية هي التي
يوجه اليها السياق :

آيات (النساء) فى النفس الواحدة خلق منها
زوجها (الاعراف 189 ، الزمر 6 ، الروم 21 ، النحل
72) وفى الزوجين خلقهما الله من نفس واحدة ، او
من ذكر وانثى : (النساء 1 ، الاعراف 188 ، الزمر 6 ،
النحل 72 ، الروم 21 الشورى 11) ومعها : النبأ 8 ،
الشعراء 166 ، والذاريات 49 ، النجم 45 ، القيامة
19 ، فاطر 11 .

وفى فلك نوح جعل فيها من كل زوجين اثنين :

المؤمنون 27 ، هود 40 .

وفى ما شرع الله من أحكام الزوجية ، وما نزل
فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من توجيهات ،

« ولا تطع كل حلاف مهين ، هزاز مشاء بنميم .
مناع للخير معتد أثيم »

وجاء الفعل مرة واحدة مسندا الى الدين آمنوا ،
نوجبت عليهم كفارة الحنث باليمين :

« ذلك كفارة إيمانكم اذا حلفتم » المائدة 89 .

* x *

اما القسم فيغلب استعماله فى الايمان الصادقة .
وجاء موصوفا بالعظمة فى آية :

« وانه لقسم لو تعلمون عظيم »

وجاء الفعل فى الشهادة ومثلها ، حيث لا يحمل
الحنث باليمين . كالشهادة حين الوصية (المائدة
106 ، 107) .

وحين يسند القسم فى القرآن الى المجرمين او
الكنار ، فانهم يقسمون عن اقتناع بصدق ما يقسمون
عليه .

السرور 55 :

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير
ساعة »

الانعام 109 :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية

ليؤمنن بها »

ومعها آيات :

الاعراف 49 ، ابراهيم 44 ، المائدة 53 ، النحل
38 ، النور 53 ، فاطر 42 .

وامام هذا البيان القرآني ، لا يهون ابدا ان نفسر
القسم بالحلف ، وصنيع القرآن يلفت الى فرق دقيق
بين هذين اللفظين المقول بترادفهما .

فان لم نقل ان القسم لليمين الصادقة ، والحلف
لليمين الكاذبة ، على اطلاقهما . فلا اقل من ان يكون
بين دلالتهما الفرق بين العام والخاص : فيكون القسم
لمطلق اليمين بعمامة . ويختص الحلف بالحنث فى
اليمين ، على ما اطرده استعماله فى البيان الاهلى .

* x *

زوج ، وامرأة :

وترى البيان القرآني يستعمل لفظ « زوج »
حيثما تحدث عن آدم وزوجه :

مثل آيات البقرة 230 ، 240 ، آل عمران 90 النساء
11 ، 19 الانعام 139 ، الحجر 88 ، النور 6 ، 30 ،
طه 131 ، التحريم 1 : 5 ، المجادلة 1 ، المتحنة 11 ،
الاحزاب 28 ، 37 ، 50 : 59 .

* × *

واكتفى بما قدمت من شواهد وأمثلة تؤيد ما
ذهب اليه المحققون من أهل اللغة في انكار الترادف الا
ان يجيء في لفتين : « فاما ان يجيء في لغة واحدة
فمحال ان يختلف اللفظان والمعنى واحد كما ظن غير
المحققين من النحويين واللفويين ، وانما سمعوا العرب
تتكلم بذلك على طبامها وما في نفوسها من معانيها
المختلفة، وعلى ما جرت به عادتها وتعارفها، ولم يعرف
السامعون تلك الملل والفروق فظنوا ما ظنوه من ذلك
وتاولوا على العرب ما لا يجوز في الحكم » (1)

وقد ينبغي لي ان اعترف هنا بقصوري من لمسح
سر الدلالة لبعض الفاظ تبدو مترادفة ، فليس لي ان
اثر بالمجز وانا اتمثل بكلمة ابن الاعرابي :

« كل حرفين أو قمتها العرب على معنى واحد ،
في كل منهما معنى ليس في صاحبه ، ربما عرفناه
فاخبرنا به ، وربما فمض علينا فلم نلزم العرب
جهله » (2) .

الاساليب وسر التعبير

قد تكون عرفنا البلاغة العربية علما وثقناها
صناعة ومنطقا .

غير اننا ما نزال في اشد الحاجة الى ان نجعلها
ذوقا اصيلا وحسا مرهقا في آيات الفصاحة العليا
والبيان الممجز .

الاستفناء عن الفاعل :

واحاول فيما بقي من المجال المحدود للبحث ،
ان اقدم بعض ما هدى اليه البيان القرآني في اساليب
غاب عن كثير منا سر التعبير فيها والبيان .

(1) ابو هلال العسكري : الفروق اللغوية 12 .

(2) ابو هلال العسكري : الفروق اللغوية 65 .

من الظواهر الاسلوبية اللافتة في البيان الممجز
ظاهرة الاستفناء عن الفاعل التي توزعت في دراساتنا
وكتبتنا بين ابواب شتى متبادلة ، لا تعطى سر هذا
الاستفناء ، فانت تقرا في الصرف كيفية بناء الفعل
للمجهول وصيغ المطاوعة . وفي النحو احكام نائب
الفاعل . اما لماذا حذف الفاعل فذلك موضوع آخر
ندرسه في علم آخر هو علم المعاني التي انفصلت عن
الاعراب فعاد هذا الاعراب صنعة ، وهو في الاصل من
صميم المعنى . كما ندرس في علم البيان اسناد الفعل
الى غير فاعله على سبيل المجاز ، دون ان نحاول جمع
هذا الشتات المنتشر للظاهرة الاسلوبية لاجتلاء سرها
الذي من اجله تستغنى العربية عن الفاعل فتسند الى
غير فاعله : بالبناء للمجهول ، او بالمطاوعة ، او
بالاسناد المجازي .

— ◆ —

وقد لفتني اطراد ظاهرة الاستفناء عن الفاعل في
البيان القرآني في موقف واحد هو موقف القيامة :

اما بالبناء للمجهول في مثل آيات :

« فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة »

« وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة »

« اذا رجعت الارض رجاء . وبست الجبال بسا »

« يوم ينفخ في الصور فتاتون اوجاجا »

« وفتحت السماء فكانت ابوابا . وسيمرت

الجبال فكانت سرايا »

« فاذا النجوم طمست . واذا السماء فرجت .

واذا الجبال نسفت »

« اذا الشمس كورت . واذا النجوم اكدرت .

واذا الجبال سيرت . واذا المشار عطست . واذا

الوحوش هشرت . واذا البحار سجرت . واذا النفوس

زوجت . واذا الموهودة سئلت . باى ذنب قتلت . واذا

الصحف نشرت . واذا السماء كسحت . واذا الجحيم

سعرت . واذا الجنة ازلقت . علمت نفس ما احضرت »

« كلا اذا دكت الارض دكا دكا »

« وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان واني له الذكرى »

« افلا يعلم اذا بعث ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور »

ومعها آيات النسخ فى الصور ، وكلها بلا استثناء مبنية للمجهول .

واما ان يستغنى عن ذكر الفاعل ، باسناد الحدث الى غير فاعله مطاوعة او مجازا كما فى آيات :

« اقتربت الساعة وانشق القمر »

« فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان »

« اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انثرت »

« اذا السماء انشقت . وادنت لربها وحقت »

« واذا الارض مدت . واقنت ما فيها وتخلت »

« يوم تشقق الارض عنهم سراعا »

« يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا »

« فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين »

« فاذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع

الشمس والقمر »

« واخرجت الارض اثقالها . وقال الانسان مالها .

يومئذ تحدث اخبارها »

والبلاغيون يقولون فى حذف الفاعل ، انه يحذف

للكوف منه او عليه ، وللعلم او الجهل به .

وقد مضى المفسرون على تقدير فاعل محذوف

لاحداث يوم القيامة ، هو الله سبحانه ، او ملك من

ملائكته ؛ مع وضوح العمد فى البيان القرآنى الى صرف

النظر من الفاعل والاستغناء عن ذكره . واكثر ما قالوه

فى تاويل ذلك ، ان الفاعل محذوف للعلم به . وفى القرآن

آيات لا تحصى لم يحذف الفاعل فيها مع يقين العلم

به . فما سر ظاهرة الاستغناء عنه فى احداث القيامة ؟

يهدينا تدبر السياق الى :

ان اساليب البناء للمجهول والمطاوعة والاسناد

المجازي الى غير الفاعل ، تلتقي جميعا فى الاستغناء

عن ذكر الفاعل .

ان اطراد هذه الظاهرة فى موصف البعث

والقيامة ، ينه الى اسرار بيانية وراء ضوابط الصنعة

الاعرابية والاحكام البلاغية التى نجمت فى اجراءات

المنطق البلاغى .

فبناء الفاعل للمجهول ، فيه تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه .

والمطاوعة ، فيها بيان للطواعية التى يتم بها الحدث تلقائيا او على وجه التسخير ، وكآته ليس فى حاجة الى فاعل .

والاسناد المجازي ، يعطى المسند اليه فاعلية مؤكدة محققة ، تجعله يحل محل الفاعل الاصلي ويغني عن ذكره .



السجع ورعاية الفواصل :

منذ بدأ عصر التأليف فى الدراسات القرآنية

والبلاغية ، فرضت قضية الفواصل نفسها على الاجيال

الاولى من علماء العربية ، وان لم تستقل بمباحث مفردة ،

بل جاءت عارضة فى ثنايا المصنفات القرآنية المبكرة .

فابو عبيدة من القرن الثانى للهجرة ، يقف فى

كتابه (مجاز القرآن) عند الفاصلة بين حين وآخر ،

اذا لاحظ فيها عدولا عن مالوف الاستعمال اللغوي ،

موجها همه الى الاحتجاج لهذا المدول بان « المرب

تفعل ذلك فى كلامها » وهى العبارة التى تلقانا كثيرا

فى (مجاز القرآن) .

كذلك لم يعرض « الفراء » وهو من لغوي القرن

الثانى - ت سنة 207 هـ - لمسألة الفواصل عرضا

مباشرا فى كتابه (معاني القرآن) ولكنه حدد رايه فى

موقف القرآن منها تحديدا صريحا فى تفسيره اللغوي

لمعاني القرآن ، وترجيحه بين القراءات . وهناك ان

القرآن يراهي الفاصلة عمدا ليتحقق بها جمال النظم :

فيقدم او يؤخر ويؤثر لفظا على آخر فى منشاء ، او

يعدل من صيغة للكلمة الى صيغة اخرى ، رعابة

للفاصلة ، او رموس الآيات ، كما يسميها ، كالذي

تراه مثلا فى توجيهه لفواصل من سور الرحمن ،

والضحى ، والفجر .

وعلى كثرة ما عرض « القراء » للفواصل وبخاصة

فى السور المكية ، لم يذكرها باسم الفواصل وانما هي

عنده رموس آيات ، وان ثبت على مذهبه فى ان القرآن

يرعاها قصدا الى رعابة الجرس الصوتي والمشاكله

اللفظية . مع تحاشيه ذكر « السجع » .

وانكر « ابن قتيبة » مذهب « الفراء » فى هذه

الرعاية اللفظية للمقاطع ورموس الآيات .